

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبيريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مملكة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سميتها بإسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو ولدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هديران. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعد بقوة لهذا الازدهار، كما أعد لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجيء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورنى وراسين مثلها المسرحى الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاثامه باشتراكه فى مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسباني هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولا يزال - المرجع الأساسى للأوربيين فى التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنیکا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبي، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه فى مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين^(١).

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما فى الأدب اللاتينى أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا، بل أنتجوه فى روما، وهو لذلك أدب لاتينى روماني خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال فى العهد الروماني كما كانت فى العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسما، بل ظلت روما ترعاها وتعهدها فى الحضارة كما تعدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت فى القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المنبريرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابا من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصويره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت فى قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء فى الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا فى عهد القوط بإسبانيا من الجهالة^(٢)، وليس لهذه المجموعة أى ذكر فى كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، ويحق ما يقوله صاعد فى كتابه طبقات الأمم من أن هذا القطر لم يُعرف فى

(١) انظر فى سنیکا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٦٣/١٠ وما بعدها وكذلك ١٧٤
(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٩٤/١٢ وما بعدها.
وما بعدها وما بعدها.

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب^(١). وكان فيه - كما مر في الفصل الماضي - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمي، وأيضا لم يكن لهم دور في الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثيل العلم العربي ثم على المساهمة في ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جدَّ الغرب في طلب العلم الأندلسي والوقوف عليه. ومثل اليهود - في ذلك - الصقالبة الذين مرَّ ذكرهم في غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرُّبضى، وكانوا يتعلمون العربية ويتقنون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور في الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن في عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية في الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولدين أسهموا في تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذى استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أُسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفظونهم بعض القرآن ويبصرونهم بالدين الخفيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون في جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة^(٢)، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتَّابا في عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقي في أماكن مختلفة من أحياء قرطبة.^(٣) وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلم الكتاتيب يسمى مؤدِّبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة^(٤)، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوى بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة) (٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت)

ص ٩٧. ٢٤٠/٢.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) (٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبع

القاهرة) ص ٢٧٨.

ص ٤٠.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوّه ابن خلدون بتعليم الناشئة في الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي»^(١). وابن خلدون يثني - بذلك - على مؤدبي الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا في الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مروّهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يؤدّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدّب أبناء العامة في المساجد أو في دور ملحقة بها أو في دور مستقلة بهم أو في دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنهي هذا التعليم الأول على أيدي المؤدّبين يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوي، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم في أي علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى يناعيه الأساسية في المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تُذكر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودي^(٢) النحوي المتوفى سنة ١٩٨ هـ والغازي^(٣) بن قيس المتوفى سنة ١٩٩ هـ. وكانت الرحلة في طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحبيبها إلى الشباب القرطبي وتشجيعهم عليها، ورحل في عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطئه. وتصبح الرحلة في طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرئ لمشاهيرهم فصولا طويلة في تفّحه، وهي تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهد كثره مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الربض القبلي عليه بقرطبة، فقد ألّهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلبوهم عن قرطبة،

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي.

وبلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد في المغرب، كما مر بنا: «عُنِيَ أبوه بتعليمه وتخريجيه في العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم في فنه»^(١) ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا في علوم الدين والفلسفة»^(٢) ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته وإسعافهم في مطالبهم كلها»^(٣) وسرى في غير هذا الموضع أنه هو الذي دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهدده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالمئات - في المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمه بعد يحيى الليثي تضم ثلاثمائة طالب^(٤). وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازي: «كان مكرما لأعلام الناس مقدما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف في رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»^(٥) ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له^(٦)، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشني فقد رحلا إلى المشرق وجلب أولهما كتاب مصنف ابن أبي شيبة في الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماه منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثاني أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملأه الكتاب على الطلاب في المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا في فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر بمجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

دار التراث بالقاهرة) ٨/٢.

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ٤٥/١.

(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع

(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٤.

بيروت) ص ٢٤٥.

(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.

(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة

العلم والفقہ باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة^(١)» وفي ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس في عهده الذروة المنتظرة في قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية في أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستثنى له الإغداق على العلماء، وبكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي بالفسطاط - وهو أندلسي الأصل - عشرة آلاف دينار^(٢) ليفرقها على شيوخ المالكية بمصر لتتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستثنى لابنه الحكم أيضاً إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا في الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى^(٣) سنة ٣٣٠ فبالغ في الحفاوة به، وقاد أبو على في الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عنى الناصر بعلماء الدين واللغة عنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باليونانية، ولم يكن في قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعاً، وألف الناصر لجنة لمساعدته في ترجمة الكتاب إلى العربية^(٤).

واقندى الحكم بأبيه منذ كان ولياً لعهد وأُسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها في أيامه، حتى إذا خلفه في الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرَّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوّه بها طويلاً في مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين في الأندلس وفي المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب^(٥) في فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل.

تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى

بالقاهرة) ص ٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

(طبعة دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل

الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقريبه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر في وفادة أبى على القالى على الناصر

ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

ص ٢٠٤ وإنباه الرواة ٢٠٤/١ ومعجم الأدباء

لباقوت ٣٠/٧ وبغية الملتبس للضبي ص ٢١٦

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني الذي ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وكان ابن داود ذكر في كتابه مائة باب في كل باب مائة بيت فجعل الجياني كتابه مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئاً^(١)، وسمع الحكم بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فأرسل إليه ألف دينار ذهباً ليبيعت إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقحة، وأرفقه بكتاب في أنساب أسرته الأموية موشحاً بمنابهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضي الأبهري المالكي حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم في الفقه المالكي^(٢).

ويقول ابن الأثير: «لم يُسمَع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها^(٣)» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهد خزان من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده^(٤)». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلّاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته في القصر كانت أربعاً وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون^(٥) ورقة - وفي رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التي اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمي، وكانت تزرخ بالحدائق في صناعة النسخ والتجليد^(٦) وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخاً منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى في الجذوة أن الحكم مرّ يوماً بأبي على القالي ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوي ابن ولاد، ومكث معهم قليلاً يسألهم عن نسخ الكتاب^(٧). ويقول ابن الأثير منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته في الحلة السيرة وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعة آلاف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص ٤٧ وما بعدها.

(١) انظر الجذوة ص ٩٧ وبغية الملتبس ص ٤٠ وابن دحية في المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم في الحلة السيرة لابن الأثير (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

لفوائدها، وقلما تجد له كتاباً كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو في آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به^(١). وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس في عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب في العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضاً بفضل ما أعاد عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب في المساجد، بل كان يعممها في المؤدين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين في الكتاتيب^(٢) ومرّبنا أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين كُتّاباً، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوّه بأهله ورفع ذكركم، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده^(٣).

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه في ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى في الشمال انتصر فيها دائماً واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حجب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم في كل أسبوع يوماً يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه^(٤)، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادي اللغوى، وألف له في اللغة كتباً مختلفة نال بها منه أموالاً جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له تواباً بخمسة آلاف دينار^(٥). وكان يعنى بالفقهاء

(١) ترجمة الحكم في ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض في كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقرعن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ٢٠١/١.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعيد الواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحيدى ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة

للقفطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يحقّق بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرّ بنا في الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقرباً للعامة - أن ينكل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى^(١)، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم^(٢) حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاماً وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مخترنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا سمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشؤون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هيئاً لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقاً كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سهاها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٤٣٧/٢.

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولا يُدّ أن كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (الترجمة العربية)

نحو مائة مجلد^(١). وبث بنو ذى النون في طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء^(٢)». ونهضت سرقسطة في أقصى الشمال بحركة علمية نشطة في الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت في دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤمن من بني هود وله في العلوم الرياضية تأليف مثل الاستهلال والمناظر^(٣) وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت في المرية شرقي الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبي أول أمرائها، وكان كاتباً مبدعاً وشغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمئة ألف مجلد^(٤)، وصارت الإمارة سريعاً إلى بني صُباح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة في عهد أميرها المعتصم وكان شاعراً مجيداً كما كان ممدّحاً أكثر الشعراء من مديحه^(٥). وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون في مرسية وبلنسية في شرقي الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلوائه^(٦). وكان لغرناطة في جنوبي الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمي والأدبي، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر في الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر في نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا ببيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة في وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين في الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

(٥) انظر ابن الأبار في الحلة السيرة ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه في التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصري الحكيم وأبو الفضل البغدادي الأديب.

(٢) المغرب ١٢/٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.

(٤) المغرب ٢٠٦/٢.

الفقهاء في هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه^(١)، واحتذاه في ذلك ابنه على خليفته في الحكم. ولا تلبث دولة الموحيدين أن تحل في المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالما مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية^(٢) وكان مؤثراً لأهل العلم ويجري عليهم الرواتب الواسعة^(٣) وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ). وكان قد درس في إشبيلية على فقهاء وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حُفَظَةً حتى ليقولون إنه حفظ البخاري بأسانيده، وشُغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر^(٤)، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفاً مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة^(٥) وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو في الأندلس طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط في أيدي المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس في غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة في حجر النصارى أن تستم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر في الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقيه (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفاً بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطي كى يدرسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية^(٦) ولعل أكبر أمير من بني الأحمر نشطت دراسة العلوم في عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

(٥) انظر كتابنا الرد على النحاة (طبع دار

لثقافتنا ص ١٥).

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن

الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة)

٦٧/٣ - ٦٨.

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع

الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع

القاهرة) ١/١٥٨.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذي أنشأ لأول مرة في غرناطة - بل ربما أيضا في الأندلس - مدرسة سماها المدرسة^(١) النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا في المساجد أو في دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب في منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء في المساجد أو في منازل العلماء التي كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة في هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يُلزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروع دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجوارهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان في الصغر مثل ابنة حزم التي كانت تشترك مع أبيها وأخيها في تأديب الناشئة بدار واحدة^(٢) وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم في أى فرع من فروع العلم إلا ويأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشيء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كُنَّ يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراءة بالمساجد^(٣) وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم في الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

(١) راجع هذه المدرسة في ترجمة رضوان النصرى في الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس^(١). ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديباً شاعراً وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها^(٢). ومر بنا في الفصل الماضي ثلاث من جواري القصر الأموي كانت اثنتان منهن: مزنة وكتبان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة بُني تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وكانت أدبية بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التي عزى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبي عامر عن أبيه وجدّد له العهد بالحجابة^(٣) سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجواري في قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهن اللاتي كن يقمن على تربية النشء في تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء في العهد الأموي إذ يقول عن نشأته في أواخر القرن الرابع الهجري بكتابه طوق الحمامة: «إنني رُبيت في حجور الجواري ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين بقل^(٤) وجهي وهن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار»^(٥). وتلقانا في كتب التراجم من حين لآخر عالمت متممات في العلم مثل ابنة فائز زوجة أبي عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبي عمرو الداني المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبي داود بن نجاح في آخر سنة ٤٤٤ للهجرة^(٦). وكانت تعاصرها إشراق السويدياء وقد برعت في العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها في علم العروض وعنها أخذ أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالي^(٧) واشتهرت في تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتاني بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة^(٨). وتلقانا في القرن السادس أم العز^(٩) راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

أحمد مكى طبع دار المعارف) ص ٧٩.

(١) المراكشي ٤٨١/٢/٨.

(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.

(٣) المراكشي ٤٩٣/٢/٨.

(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.

(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر

(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشي ٤٩٤/٢/٨.

(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشي ٤٨٠/٢/٨.

(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة

لابن بسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.

(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشي ٤٨٣/٢/٨.

أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتهما، وكانت الطيبة لنساء الأمراء من بني عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجوارهم، وكانت تُستفَى في الطب لرجالهم فتزید حظوة^(١) عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتعد بحق - جدة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللاتي كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول في بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة^(٢). ويذكرون عن محيي الدين بن عربي الصوفي المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عيدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها في دفعه إلى التصوف نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم في موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التشقق بالشعر، مما هيا لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل

لم يكن في إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عُني بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث في الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضي ابن سعيد في ترجمته قائلا إنه: وجّه عباس بن ناصح إلى العراق في

ابن زهر، وكانت ابتنتها طيبة مثلها.

(٢) انظر المراكشي ٤٨٥/٢/٨.

(١) انظرها في الذيل والتكملة للمراكشي

٤٨٣/٢/ وراجع طبقات الأطباء

بن أبي أصيبعة في ترجمة أخيها الطبيب أبي بكر

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها»^(١). وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد في الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا في زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشَّمر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجرى عليه راتبا للشعر وراتبا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهد، وله معه في التنجيم أخبار طريفة^(٢).

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين في القرن الثالث الهجري منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بها من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس^(٣) بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة في أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان في المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب في غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصوغ اللحن». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع في بيته قبة على هيئة السماء تترأى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سرق (شقق) الحرير فتها له أن طار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل في الهواء فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة. وتأخذ علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة في النمو منذ عصر الأمير محمد

والجذوة للحميدى رقم ٥٠٥ وبغية الملتبس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع في ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/٨.

(٢) انظر في ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضى رقم ٦٨٩ والزبيدي ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشنى ص ٨٣.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ.)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم في علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا الجلب وأكب العلماء عليه يدرسونه. وطبيعى لذلك أن يظهر في عهد المستنصر مسلمة^(١) المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد ترجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة في الأسطرلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمي أوجدأوله الفلكية وقد حوّلها من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربى وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتاني سباه تعديل الكواكب. وخلفه في الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمر المنصور بن أبي عامر في زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطها في بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم^(٢) أصبغ بن محمد بن محمد بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا في الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة في الحساب، وكتابان في الأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعة والآخر في العمل به، وله أيضا زيغ فلكى انتفع به وبكتاباته الفلكية ألفونس العاشر وعلماءه. ومن تلاميذ مسلمة ابن الصفار^(٣) أحمد بن عبدالله الغافقى، وله زيغ جيد ورسالة في العمل بالأسطرلاب، وكان يعلم في قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة في أوائل القرن الخامس الهجرى - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامرى وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى^(٤) عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

(٢) راجع طبقات صاعد ص ١٠٧ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٣ وبالتنبا ص ٤٤٩ وألدوميل ص ٣٥١.

(٣) انظر في ابن الصفار طبقات صاعد ص ١٠٨ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٤ وبالتنبا ص ٤٥٠ وألدوميل ص ٣٥١ وبروكلان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع في الكرمانى طبقات صاعد ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٤ وبالتنبا ص ٤٥٥ وألدوميل ص ٣٥١ وبروكلان ٢٢٨/٤.

(١) انظر في مسلمة المجريطى طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص ١٠٧ وابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسى لبلانبا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدوميل (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص ٣٥١ وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربى لبروكلان ٣٢٣/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود في رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يكُبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال في الفلك^(١).

ولعل في التلامذة السابقين لمسلمة المجريطي ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولا يلبث أن يظهر في عصرهم عَلمُ الرياضيات الزُّرقالي^(٢) القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢ هـ وهو من أعظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأسطرلاب وابتكر له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر في الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماءه من مؤلفاته رسالة في العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة في عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهي عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس في حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير في عهدهم ولكنه لا يعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون في الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ويلمع في عصرهم اسم جابر^(٣) بن أفلح الإشبيلي وله كتاب في حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم الذي ساهم إصلاح المجسطي، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التي تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرارد دي كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م. وتختلف دولة الموحيدين دولة المرابطين في الأندلس منذ العقد الخامس في القرن السادس الهجري، ويتألق في عهدهم بالنصف الثاني من القرن اسم عالم رياضي إشبيلي عربي يُعدُّ في طليعة الرياضيين

(٢) انظر الزرقالي في طبقات صاعد ص ١١٧ وبالنتيا ص ٤٥١ وألدوميل ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر في جابر بالنتيا ص ٤٥٦ وألدوميل ص ٣٨٣.

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنتيا ص ٤٥٥. وعاش في بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطي ابن البغوش انظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٥ وبالنتيا ص ٤٥٣.

العالميين، ونقصد البُطروجي^(١) أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكي في علم الهيئة، إذ قوَّض فيه نظرية بطليموس في كتابه المجسطي عن الكواكب السيارة قائلاً إنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو ببيضاوية حول الشمس، وترجم هذا الكتاب الفلكي سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة وأطلع عليه حوالي سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م وبذلك أدخل نظرية البُطروجي الفلكية مبكرا إلى العالم الغربي وترجمها إلى العبرية موسى بن طِبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية فالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م ونشرت ترجمته في البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١ م. وبدون ريب أطلع كبلر^(٢) الألماني (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عدَّ كبلر أباً لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعي، فأبوه الشرعي الحقيقي هو البُطروجي الإشبيلي العربي. وتوقف هذا النشاط في الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت في يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها في أيدي المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة في الأندلس، وأخذ النشاط في علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التي ظلت للعرب في الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرُّقوطي^(٣) محمد بن أحمد وتوفي بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات في مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب في حاضرتة، ولَبَّاه سريعا، ويختتم الرياضيين الأندلسيين في نهاية القرن التاسع الهجري القلصادي^(٤) على بن محمد القرشي وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفي ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦ م وظلت كتبه تدارس في المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

(٤) راجع في القلصادي ترجمة واسعة في نفع الطبيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء الالامع للسخاوي ١٤/٥ وبالنتيا ص ٤٥٧ وما بعدها وألدومبيلي ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجنان.

(١) راجع في البُطروجي ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنتيا ص ٤٥٦ وألدومبيلي ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) راجع بالنتيا ص ٥٣٥.

(٣) انظر في الرقوطي بالنتيا ص ٤٥٧ والاحاطة ٦٧/٣ وما بعدها.

وازدهر الطب في الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جليجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصْرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط^(١) (٢٠٦-٢٣٨) ويمكن أن نعمم ذلك في الأندلسيين بعامه، كما مرّ بنا آنفاً، فإنهم انتظروا في ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته في الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين^(٢) بن أبان وكان - كما يقول ابن جليجل - طبيباً حاذقاً، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحراني^(٣) اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سماه المغيث، ويذكر ابن جليجل في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيباً يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة^(٤). ثم أخذ علم الطب في الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثّر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا في صدر دولته يحيى^(٥) بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله في الطب كتاب في خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان^(٦) بن باج، وكان يعاصره سعيد^(٧) بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفي سنة ٣٤٢ وكان حاذقاً في علاج الحميات، وله كتاب في الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد^(٨) بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتعلّما لثابت بن سنان بن قرّة الطبيب المشهور ببغداد وقرأ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحراني وأخذاه عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفي عمر، وظل المستنصر حفياً بأحمد وأُسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهراً في علاج أمراض

-
- (١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جليجل ص ٩٢.
 (٢) انظر فيه ابن جليجل ص ٩٣ وبالنتيا ص ٤٦١.
 (٣) انظر في الحراني ابن جليجل ص ٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦.
 (٤) راجع في ابن ملوكة وإسحق ابن جليجل ص ٩٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ ويقول ابن جليجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيًا لعود الناس.
 (٥) انظر في يحيى بن إسحق ابن جليجل ص ١٠٠.
 وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٨.
 (٦) راجع في ابن باج ابن جليجل ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩.
 (٧) انظر في سعيد ابن جليجل ص ١٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١٢٠/١ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنتيا ص ٤٦٢.
 (٨) راجع في أحمد وأخيه عمر ابن جليجل ص ١١٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٧ وبالنتيا ص ٤٦٤.

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد^(١) بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبرّ مارستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وتتوّج النهضة الطبية حينئذ بالزهرأوى^(٢) أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التي بناها غربي قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفي سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة في ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما في الطب العام والأمراض وقسما في الصيدلة وقسما في الجراحة، وعُنى جيراردي الكريموني في القرن الثاني عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزاءه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر في البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب في الغرب، وظل يدرس في الجامعات الأوربية من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدّون الزهرأوى إمامهم في الجراحة سواء في جراحة العظام أو في جراحة الحصى في المثانة والمهبل والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالي وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهي تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البطرّوجي السالف الذكر أبا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب في الأندلس مزدهرا في عصر أمراء الطوائف وكذلك في عصر المرابطين والموحدين، ويتوارث في بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيلية، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين في القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك^(٣) جدهم وكان ماهرا في صناعة الطب، وطارت شهرته بها في عصر أمراء

والدوميلي ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره في طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩
والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧
والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان
عباس ٣٧/١/٥.

(١) انظر في ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥
وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع في الزهرأوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨
وابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى
لبروكلمان ٣٠٠/٤ وما بعدها وبالتثنية ص ٤٦٥

الطوائف إلى أن توفي سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء^(١) طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه علي إلى أن توفي سنة ٥٢٥ للهجرة، وله في الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها في السنة التالية لوفاة، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحيانا باسم كتاب النكت) وقد نشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك^(٢) طبيب المرابطين ثم الموحيدين إلى أن توفي سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله في صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقي منها ثلاثة إلى اليوم، هي: كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد وهو في الطب الباطني، وكتاب الأغذية والأدوية وهو في الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو في الطب العملي، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة في البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلي: «يُعد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربي عملي (كلينيكي) بعد الرازي». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذي انفرد بالإمامة في الطب لزمانه إلى أن توفي سنة ٥٩٥ هـ ومراً بنا في غير هذا الموضوع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحيدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب في هذا البيت، فكان عبد الله^(٣) بن أبي بكر بن زهر طبيباً حاذقاً وخدم الناصر الموحيدي (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفي سنة ٦٠٢ هـ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبي الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات في الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبي العلاء زهر، وتلقن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد^(٤) عبد الله وخدم بها الناصر

(١) طبعة كوديرا بمطبعة (رقم ١٧١٧) وبالنبيا ص ٤٧١ وألدوميلي ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.

(٢) راجع ابن أبي أصيبعة في ترجمة أبيه ص ٥٢٩.

(٣) انظر أيضا ابن أبي أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

(١) راجع أبا العلاء في التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص ٢٠٣ وفيه أنه تطبب زمانا طويلا بالشرق وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبث بها أهل زمانه.

(٢) انظر في عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ابن أبي أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار

الموحدي. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بني الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة في وصف وباء الطاعون الذي اجتاحت مدينة المرية سنتي ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبيا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب في الطب كتابا في جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس في الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرّ بنا، وكان له تأثير بعيد في نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا في صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل في ترجمته إنه تولى خزانة الطب في قصر المستنصر، ورثب لها اثني عشر صَيًّا صقالية طبّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. وملتقى في عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبي أصيبعة^(١) كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل^(٢) مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره في الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرهما في الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة في ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب، ومقالة ثانية في أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن^(٣) سمجون وله كتاب في الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيدلة في عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى في عصرهم ابن^(٤) وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهّر في علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

(٣) انظر في ابن سمجون ابن أبي أصيبعة

ص ٥٠٠ وبالنسبة ص ٤٦٧

(٤) راجع في ابن وافد طبقات الأمم لصاعد

ص ١٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنسبة

ص ٤٦٧.

(١) راجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر في ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد

وابن أبي أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس

للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتبس

للضبي (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنسبة ص ٤٦٥

والدوميليل ص ٣٥٤.

نوادير محفوظة في الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأمرها المأمون بن ذى النون. وتُسند كتب الصيدلة حينئذ كتب ألفت في الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع في الفلاحة لابن^(١) حجاج الإشبيلي المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردني. وهو يفيض في بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاکلة هذا الكتاب في الفلاحة كتاب لأبي عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصص والبيان».

ونغضى إلى القرن السادس الهجري، وملتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد^(٢) بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتي نقل عنه، وأيضا فإن ابن العبري المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصرا ونشره جورج صبحي وماكس مايرهوف بالقاهرة. وملتقى بعده بابن^(٣) العوام أبي زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمديريه، وهو موسوعة تاريخية نفيسة في علم النبات، وقد عُد منه ٥٨٥ نوعا منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. ومن تعمقوا في دراسة النباتات في الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية^(٤) الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر في طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوّل في الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار^(٥) أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجوّل في نواحي المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

(٤) انظر في ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنتيا ص ٤٧٨ وألدومبيلي ص ٤١٤.
(٥) راجع في ابن البيطار ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاکر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالنتيا ص ٤٧٨ وألدومبيلي ص ٤١٤.

(١) انظر ابن حجاج في المغرب ٢٥٦/١ وبالنتيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع في الفلاحة.
(٢) راجع في الغافقى ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنتيا ص ٤٧٢ وألدومبيلي ص ٤٠١.
(٣) راجع في ابن العوام بالنتيا ص ٤٧٥ وألدومبيلي ص ٤٠١ وأعمال مؤتمر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٩ م) ٢/٢١٥-٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

رئيسا على العشابين بصر، وظل يرأسهم في عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: أوحده زمنه في معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق في أربعة مجلدات وهو معجم أبجدي للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماؤها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثاني المغنى في الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده في العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلى فى الأندلس بعده محمد بن^(١) السراج القرناطى المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراکش ووضع في الأدوية والأعشاب كتباً كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها في الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن^(٢) عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكراً بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمة في عقيدته، وكأما خشي على نفسه، فرحل في سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختلف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحرية في إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها
وكتاب الناصر في التنديد بمذهبه ص ٢٥ والفصل
في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة)
١٩٨/٤ وبالنشأ ص ٣٢٦.

(١) انظر في ابن السراج بالنشأ ص ٤٨٢.
(٢) راجع في ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس
لابن الفرضى (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار
الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأً إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشارك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلي المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألّف في ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح في أحاديث الشفاعة ويؤوّل آيات القرآن. وكان يَسْتُرُ دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا، ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتلى على الناس في قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضّح فيه نحلّتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمر من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور في عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألّف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه في ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم في كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره في القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فيما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعنى، وكان يقول إن العالم لا يفتى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه^(١). وظلت تعاليم ابن مسرة حية في الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا في اتجاهاه أو بعبارة أخرى في اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسططاليس.

وكثر هذا الاتجاه في عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطلى المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد الوقشي الطليطلى وابن الجلاب السرقسطى وابن سيده المرسى، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية^(١) بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدير مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن^(٢) السيد البطلوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوى وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: «كتاب الحقائق في المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفنى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاوره تيباوس ونقل بالنتشيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاور.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن^(٣) باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شبلى الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنيت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكب مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكب على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر^(٤) بن تيفلويت حين حكم سرقسطة من قبل

الفلاند ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفح الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والوفا بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والخريدة للعباد الأصبهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالنتشيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة ٥٠٤/١.

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.

(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلاند العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالنتشيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر في ابن باجة القفطى ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح في

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذ كاتبا له ووزيرا، حتى إذا توفي هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مرثيه ونفى بها في ألحان ميكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين في المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبي أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان في أقاويله، وقد عني عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعى أو سمع الكيان، وجزءا من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءا من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابى والأدوية المفردة لجالينوس وأيضاً لابن وافد. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله في الفلسفة كتاب في البرهان وكتاب في النفس وكتاب في العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدير وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية التدبير اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصل بين التأمل العقلى وبين عَوْنِ علوى، محاولا الوصل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد^(١)، فبلغا بالفلسفة الإسلامية في موطنها الغاية التى ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل^(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسى، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة في بُرْشانة من أعمال المريّة، وقيل في وادى آش من أعمال غرناطة، وقيل بل في تاجلة من أعمال جيان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكرا، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف في زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف في الفلسفة مثل كتاب له في النفس، واشتغل بالطب في غرناطة

وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وبحقة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالتنباص ٣٤٨ والميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقي. (طبع دارالمعارف).

(١) انظر في تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكسى (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفي تلمذة ابن رشد له ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع في ابن طفيل المعجب ص ٣١١.

وبعض الأعمال الإدارية فيها وفي سبته وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذته مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وممن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيظا به إلى أن توفي قبله بقليل في مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له في الطب والفلك مؤلفات سقطت في يد الزمن، ويقول البطروحي أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر في عصره إلى اليوم بقصته: حي بن طفيل، وسنخصصها بحديث مفرد في الفصل الأخير.

وابن رشد^(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها في العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا في إشبيلية سنة ٥٦٥ وفي قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكبَّ على دراسة الفقه في بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعا مهما في الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وترجم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٨٢ وترجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب طبع أيضا في البندقية بعد كتابه الكليات بستتين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو في كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضي إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى فو عنه في دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتاني د. عاطف العراقي عن الزعنة العقلية والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد. (طبع دارالمعرف).

(١) راجع في ابن رشد ابن أبي أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار في كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوفاي بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ١١٤/١ وابن فرحون في الديباج المذهب ٢٥٧/٢ والغرب ١٠٤/١ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ وابن العماد في الشذرات ٣٢٠/٤ وبالتنبا ص ٣٥٣ وتراب لإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر في موقعة الأرك المشهورة ضد نصارى الإسبان سنة ٥٩١ أخذته الحمية للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول يقدم العالم بالقوة موقفا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه في سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراکش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منها أن لبى نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة لخص فيه كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء» ويقول بالنثيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعى وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصلية في الفلسفة وفي مقدماتها تهافت التهافت الذى يرد فيه على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسططاليس. وله شروح على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجواهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل في قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيها دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفي كل إنسان قيس منه، وإذا ازداد اتصاله به ساء إلى حالة الكشف الصوفى. وأدته محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل فى النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالي وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجد وتشكّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلي أو جزئي، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريموني (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزي (١٢٣٥ م) وهرمان الألماني (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدرّس في الجامعات الأوروبية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبّت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابنتي الأستاذ بجامعة باريس وطردته من رحابها في سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكاني الألماني ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكويني هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه في التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه في طريق واحدة متبعين خطاه فيما قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقیصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوي قرّر سنة ١٥٠٢ لَعَنَ كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. وما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الديني في النهضة الأوروبية، ويقول بالنسبة إن تأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوربي كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام في الأندلس.

(ج) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشاركة في الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربي والإسلامي، وقد يصفون أنحاء من أوروبا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك في جاهليتهم حين كانوا يكثر من الرحلة وراء الكلاّ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عبادتهم ومنسكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوه ورحالته، وأن تشارك الأندلس في ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافي مهم نلتقى به فيها أحمد^(١) بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافي، ولم يبق من أعماله سوى قطعة في جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها في قسميها الغربي والشرقي وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان في كتابه - وكذلك ابن سعيد في كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو^(٢) عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس في عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك. ويلقانا في عصر أمراء الطوائف أحمد^(٣) بن عمر بن أنس العذري الدلائي المرئي المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك وفيه يعرض كُور الأندلس وأجزائها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكري^(٤)، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان أباه أمراء ولبة وشلطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذها منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريّة، وأرسله ابن صُباح صاحبها في رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فأثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفي. وله في الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

(٤) راجع في أبي عبيد البكري الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٣٢ والفلاند للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص ١٩١ والصلة لابن بشكوال ص ٢٨٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ والمغرب ٣٤٧/١ والحلة السيرة (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص ١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص ٣٠٩ وما بعدها والدوميلي ص ٣٦٠.

(١) انظر في الرزي جذوة المقتبس للحميدي (طبع القاهرة) ص ٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص ٥٦.
(٢) راجع في أبي عبد الله التاريخي الحميدي رقم ٩٠ وبغية الملتبس للضبي رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.
(٣) انظر في الدلائي الحميدي رقم ٢٣٦ والضبي رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع فى جزيرة العرب، طبعه وستفلد قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدّدة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة» واستهله بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد^(١) بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سباه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليتمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب^(٢) من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورتها ومحرايه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرئ احتفظ بها فى النفخ، وله فى الجغرافيا كتاب يحمل سباه «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة^(٣)» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السيلي أى اليابان.

المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د. مؤنس ص ٤٥٢ وما بعدها.
(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

(١) انظر فى الزهرأوى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية في وصف غرناطة لكتابه: الإحاطة في تاريخ غرناطة واللمحة البدرية في الدولة النصرية. وحرى بنا أن نذكر محمد^(١) بن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعياً أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سوراً منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا في الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعاً النطق بالفصحى وبيع بعض آيات القرآن الكريم في صلاتهم. وملتقى في القرنين الثاني والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائلهم الغازي^(٢) بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفي الغازي سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعي ونظرائه في اللغة بالبصرة يأخذ عن مالك الموطأ في الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس في القرن الثاني والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين في القراءات والفقه والحديث النبوي. وعلى شاكلته في الرحلة والأخذ عن الأصمعي ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى^(٣) الهواري، وله كتاب في القراءات وكتاب ثان في التفسير. ومن معاصريها جودي الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائي إمام النحو الكوفي وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف في النحو، وكان يعاصره محمد^(٤) بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضي الراحل بدوره إلى المشرق.

(١) أبي الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجي) ص ٢٧٦.

(٢) انظر في الهواري الزبيدي ص ٢٧٥.

(٣) راجع الزبيدي ص ٣٠٦.

(١) راجع في الحميري كراتشكوفسكي ص ٢٩٥ وبالنشأ ص ٣١١ ود. مؤنس ص ٥٢٩.

(٢) انظر في الغازي كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي بتحقيق الأستاذ محمد

ويذكر الزبيدي في طبقاته عشرات من لغويي الأندلس في القرن الثالث الهجري، منهم عثمان^(١) بن المثني القيسي تلميذ ابن الأعرابي، لقي أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد^(٢) بن الفرّج وكان من أقوم العلماء في زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازي السالف ذكره، تنلمذ للغويي العراق من أمثال الرياشي وأبي حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت^(٣) بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضي منذر بن سعيد بساعه من أبي العباس بن ولاد المصري المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط^(٤).

وينزل قرطبة أبو علي^(٥) القالي اللغوي الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوي عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالى» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالى والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه المقصور والمدود والمهموز وكتابا في الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبياني وعلقمة والأعشى والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدي وأوس بن حجر والقطامي

إبراهيم) ٢٦٢/١.

(٤) الحميدى ص ٤٧.

(٥) راجع في القالي الزبيدي ص ٢٠٢ وابن

الفرضى ٨٣/١ والقفطى ٢٠٤/١ وبغية الملتبس

٢١٦ ومعجم الأدباء ٢٥/٧ والأنساب للسمعاني

٤٣٧ ب وابن خلكان ٢٢٦/١ والحميدى في الجذوة

١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفي مواضع

مختلفة وشذرات الذهب ١٨/٣.

(١) انظر في ابن المثني الزبيدي ص ٢٨٨ وابن

الفرضى ٨٨/١ والمغرب ١١٢/١.

(٢) راجع في الرشاش الزبيدي ص ٢٨٤ وابن

الفرضى ص ١٤١ والحميدى ص ٢١١ والمغرب

١١٤/١.

(٣) انظر في ثابت وابنه قاسم الزبيدي ص ٣٠٩

وابن الفرضى ٨٨/١ وبغية الملتبس للضبي ٢٣٨

وإنباه الرواة للقفطى (تحقيق محمد أبي الفضل

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت في النمو أثناء القرن الرابع الهجري على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى في اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصارييف الأفعال طبعه جويدى في ليدن باسم كتاب الأفعال وتصارييفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة في هذا الموضوع، وله كتاب في المقصور والمدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحصى ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية في القرن الرابع الزبيدى^(١) محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره في حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال في عهديهما دنيا عريضة، وفي مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيراً من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لا يمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله في لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالتواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى في ألسنتهم من أخطاء. ومن لغويي القرن الرابع السرقسطى^(٢) سعيد المعافى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبي بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه في كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية في أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفليل^(٣) إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

(٢) راجع في السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر في ابن الإفليل الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

(١) انظر في الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحاميدى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتبس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا في الهوامش.

شرح جيد على ديوان المتنبي. ومن لغويي القرن الخامس ابن سيده^(١) على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفي المغرب لابن سعيد: «لا يُعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفاً، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثاني المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعاني في سبعة عشر مجلداً، ويذكر في مقدمته مصادره، وهي تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في اللغة كتاب لعالم لغوي قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده في هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية»^(٢) وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثاً من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن خَزْم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعاً لحمه قرابة وثيقة كقرابة اللهجات في لغة واحدة، يقول في كتابه الإحكام في أصول الأحكام: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعه - لا لغة حمير - هي لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلس إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي.. وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل»^(٣). وواضح أن ابن خزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعاً لغة واحدة، وتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شتالاً وغرباً أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثاً، وكأن ابن خزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

٣/٣٠٥ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢/٢٥٩.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٣/١٦٧.

(٣) راجع الإحكام في أصول الأحكام لابن خزم

(طبع القاهرة) ١/٣٠.

(١) راجع في ابن سيده الحميدى وبغية الملتبس

رقم ٢٠٥ والمطمح ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم

الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣/٣٣٠ والإنباه

٢/٢٢٥ ونكت الهميان ٢٠٤ وشنرات الذهب

اللغات المقارن بين اللغات السامية التي ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوروبيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم في ذلك نفس شأنهم الذي مر بنا في قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلام الشنتمرى^(١) يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلي: امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ في شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم^(٢) بن أيوب البطليوسي المتوفى سنة ٤٩٤ شرحاً لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكري المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي نشره عبد العزيز اليمني بالقاهرة، وكتاب فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويي الأندلس المهمين ابن السيد^(٣) البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبي العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضاً شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشتركوني أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل في الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا في أوائل القرن السابع الشريشي أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحه لمقامات الحريري منشور بمصر.

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون في القرنين الثاني والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كأنوا يعلمونها العربية أو النحو، ومرراً بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائي، وله تأليف في النحو، ويروى أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ كتاباً في إعراب القرآن، وتلتقى في أواخر القرن الثالث الهجري بالأقستين^(٤)

(١) انظر في الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والنحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.
(٢) انظر في الأقستين الزبيدي ص ٣٠٥ وابن الفرضي ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.
(٣) انظر في الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والنحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.
(٤) انظر في الأقستين الزبيدي ص ٣٠٥ وابن الفرضي ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.

(٢) راجع في عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينورى كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. وملتقى بعده بمحمد^(١) بن يحيى الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفى دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدى، وهو أستاذه في النحو وعليه درسه وتثله وألف فيه كتابه الواضح الذى نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلى المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمى عن الرباحى. ولا بن سيده الذى تحدثنا عنه أنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، وينوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيها مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا على الفارسي وابن جنى، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم في نحو المدرستين البصرية والكوفية - في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمرى الذى عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلم النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلى وأقرأه لطلابه مذلا لهم صعابه ومشاكله، وتوفّر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحى من كتاب سيبويه التى ذكرناها أنفا - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوى أندلسى كان مجاورا بها هو عبدالله^(٢) بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. وملتقى بابن السيد البطليوسى المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجى، وله كتاب في النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية بغدادى الاتجاه، يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن^(٣) الباذش

تاريخ البلد الأمين للنحاسى (طبع القاهرة ١٨٢/٥).
(٣) راجع في ابن الباذش بغية الملتبس ص ٤٠٦
والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى
٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابتنا المدارس
النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

(١) راجع في الرباحى الزبيدى ص ٣٣٥ وابن
الفرضى ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان
٣٧٢/٤.
(٢) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط
لأبى حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطى ص
٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين في

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابن الطراوة^(١) سليمان بن محمد معاصرها المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه في النحو الأندلسي من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلي^(٢) عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ في كتابه «نتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى^(٣) الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة في النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجي، ومثله ابن خروف^(٤) على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجي، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد^(٥) بن عبد الرحمن القرطبي قاضي قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذي نشرته مع تحليل لآرائه التي هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليلات وتقدير، ومع محاولة لوضع أسس في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوين^(٦) عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولي المسماة بالجزولية وكتاب في النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور^(٧) على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية في زمنه بالأندلس، وله الممتع في التصريف والمقرب في النحو وهما منشوران.

المدارس النحوية ص ٣٠١.
(٥) انظر في ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبقية الملتبس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٠٨/١ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.
(٦) راجع في الشلوين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ١٢٩/٢ والإنباه ٣٣٢/٢ وابن فرحون في الديباج ٧٨/٢ وابن خلكان ٤٥١/٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.
(٧) انظر في ابن عصفور بقية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه في كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦.

(١) انظر في ابن الطراوة بقية الملتبس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢٠٨/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.
(٢) راجع في السهيلي بقية الملتبس ص ٣٥٤ والإنباه ١٦٢/٢ وطبقات القراء ٣٧١/١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.
(٣) انظر في الجزولي الإنباه ٣٧٨/٢ وابن خلكان ٤٨٨/٣ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.
(٤) راجع في ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدياء ٧٥/١٥ وابن خلكان ٣٣٥/٣ والذيل والتكملة للمراكشي ٣١٩/٥ والقوات ١٦٠/٢ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. وولتقى بعده بأبن^(١) مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصري وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخاري سوى مصنفات أخرى في النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع^(٢) على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي على الفارسي والجمل للزجاجي، وخاتمة أئمة النحو في الأندلس أبو حيان^(٣) محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابي ابن عصفور: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا في النحو كتاب ارتشاف الضرب أي غسل النحل في ستة مجلدات، وصنع له مختصراً في مجلدين، ويقول السيوطي في البغية: «لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُنيَت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجري تعتمد في ذلك على رواية النصوص الأدبية الناشئة والتعرف على كتابات المشاركة في البيان العربي، واستطاع المؤدبون في أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلي والإسلامي والعباسي بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربي، وأصبحوا شعراء وكتابا ناهيين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربي في البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحي الاتجاه البلاغي المجدد الغالي في التجديد^(٤) والذي كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

(٣) راجع في أبي حيان طبقات الشافعية لسبكي ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر في هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢ - ٦٦.

(١) راجع في ابن مالك طبقات الشافعية لسبكي ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزري ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفي كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لآرائه النحوية.

(٢) انظر في ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

ويلقانا في مطالع القرن الخامس الهجري كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعل^(١) بن محمد بن أبي الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثاني على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتاني^(٢) أبي عبد الله محمد المتطرب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقي المتوفى سنة ٣٣٢ في كتاب «عيار^(٣) الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهني ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، وإنما عني بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب في وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب في وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان في الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتعرض في كل ذلك التشبيهات الطريفة في رأى ابن الكتاني لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب^(٤) المتوفى بعد ابن الكتاني بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع في العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول في مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة في وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

(١) راجع في ابن أبي الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتبس رقم ١١٩٣ والحلة السراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر في ابن الكتاني طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جليل ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه

لكتابه (طبع دار الثقافة بيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه في كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر في حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نثر في الرباط بتحقيق هنرى بيريس وفي السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

فيهما على المشاركة فقول يحتاج إلى نظر، وكفى المشاركة أن يكون من بينهم ابن الرومي أكبر مبدع في وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميري في كتابه مختاراته الشعرية والنثرية في ثلاثة أبواب: باب جعله في وصف الربيع ورياحينه وباب ثان في وصف أزهاره، وباب ثالث في وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف في عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المتحل والكلام المتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة في البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أکبت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت في أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نقل إليها من كتابات المشاركة في البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهي تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة وبجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد^(١) بن عبد الملك الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصل القول فيها كتاب إحكام صناعة الكلام للكلاعي^(٢) أبي القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه في مقدمة تحدث في فصولها عن صور من محاكاته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول في بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعاني، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشاركة منذ بدر^(٣) الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث في الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر في الكلاعي المطمح ص ٢٩ وابن الأبار

في التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة

كتاب إحكام صناعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد

رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

قُنت بحثاً عند المشاركة وأيضاً عند ابن رشيقي، فأفرد فصولاً لأنواع الأسلوب في الكتابة وهي عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالي من الأسجاع، والحالي وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلّ بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعاً داخلية تتقابل في كل سبعة طويلة مع قرينتها في السبعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين في الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهره، ومن الكلام كلام وإن فاح عنبره» والمفصل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجملة النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبي العلاء ولبديع الزمان الهمداني رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهي صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيق والمؤلفات، وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعيني محمد^(١) بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ربحان الأبواب وربعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج إليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها في سبعة مراتب وتهمنا في حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب في بيان شروط الفصاحة مستمداً من كتابات المشاركة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ في حديثه عن عيوب الكلام من المعاطلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثراً فيها بقدامة في كتابه نقد الشعر والحاتمي في كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونغض في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فنرى البلاغة تلتحم في الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدى لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصها ويشرحها بفكره العبقري الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصاً، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه مورداً لكل مبدأ بلاغي فيه أمثلة من الشعر العربي على نحو ما يتضح في قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع في المواعيني ابن الأبار في التكملة

رقم ٧٦٣ ص ٢٣٣ والمغرب ١/٢٤٧.

وهو فيه يفصل الحديث في أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه^(١) فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذر من التشبيهات النابية ملاحظاً أن التشبيه ينبغي أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثراً بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صوراً مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسناً وقبحاً كقول القائل في وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فستان - في رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضاً تفاوت البيان في التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض لمشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الإيجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل في الشعر ولا تقبل في النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصاً لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله في هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوي بمحسوس ملاحظاً أنه ينبغي أن لا يكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبي تمام، وهاجمها متأثراً بالآمدى في كتابه الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحرئ. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة في بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق ولمراعاة النظر، وهاجم المبالغة في الشعر التي تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التي تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجيء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء^(٢) صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط في المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافي في نظم القوافي» وهو في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(٢) انظر في مصادر أبي البقاء الرندي ترجمته في الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافي في كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق في كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

(١) انظر في آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد في الجزء الثاني والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع في الحركة النقدية وأعلامها التالين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق في كتابه العمدة، والجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث في سرقات الشعراء، والرابع في حد الشعر والعروض. والجزء الثاني في الكتاب يلتقى في وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشاركة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرها، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف إليها نحو ثلاثين محسناً. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمن والتتيم والتسهم والترصيع والمبالغة، وفي كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقبلنا نلتقى بعد الرندي في الأندلس بكتب مستقلة في علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشاركة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري على نحو ما يتضح في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسننصل القول في هذه الرسالة^(١) في الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم ويهاجم في رسالته شيخهم ابن الإفليلى، لأنهم يفقدون في رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبي، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة». ويلاحظ على أبي تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يفرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعاني الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البينة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعاني بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائماً عنده رهاقة الذوق الأدبي ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة في الشعر ويقصد بها إيراد المعاني الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونغضى إلى القرن السادس الهجري ونلتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها يُنوه

(١) انظر في الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته في
الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس)
١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبي عند
العرب ص ٤٧٥.

بالتهويل في الشعر ويعيب على نقاد عصره تسكهم بالجزالة حتى في الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ في شعر عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشتركونى الذى مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها في غير هذا الموضع ونراه في مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقى حتى زمن مهيار، وهى أحكام منثورة في كتب النقد عند المشاركة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعانى المبثوثة في أشعار المشاركة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويلات شعراء الأندلس لمعانى الشعر المشرقى وصوره وأخيلته، ونراه يحمل^(١) على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبي أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبى العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعتة المحافظة. ويلقانا عند الكلاعى الذى تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبى الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعينى في كتابه ربحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدى كان يرتكز على نقد المشاركة، وقلما التحم منه شيء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان في كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنا احتفظ النقد الأندلسى بذلك لناقد متأخر هو حازم^(٢) القرطاجنى المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى وهو فى النقد الأندلسى يقابل ابن رشد فى البلاغة الأندلسية الذى سبقه بنحو قرن، وقد ولد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقى الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت فى حجر الروم - إلى المغرب وعاش فى ظل الدولة الحفصية. وله فى النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزائه والأداء وطرقه وأثر الكلام فى السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتعمق فى بحث المعانى والمباني والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

النقدية مقدمة محققة الدكتور محمد الحبيب بن
الحوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب
للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢ وما بعدها تحقيق د. إحسان
عباس ص ٥٠٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه

اسم مَعْلَم أو معرف، ويُعنى المعلم بالترفيعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختتم بملاحظات سماها مَأْمَأ أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى المجاظر صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعول فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة: أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أفعالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخيل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لا بد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوّه بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لا بد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قَسَم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحدث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بآبن المعتز والبحترى والمتنبى وأبى تمام وآبن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازاه وتفرداه الواضح. وحازم يختتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك، ومراً بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلباً للعلم وقد أخذ عن نافع مقرأ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنة عبد الله يقرأ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله^(١) بن محمد القضاعى الذى كان يقرأ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشاركة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفا كبيرا فى القراءات هو أبو عمر^(٢) الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

(١) طبقات القراء ٤٥٦/١. لابن الجزرى ٧١/١ وكتابه طبقات القراء

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر ١٢٠/١.

ومصر، وخاصة عن عبد المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد في القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعني بدراستها حتى توفي سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى^(١) بن أبى طالب المعروف بحموش القيروانى منذ نزها سنة ٣٩٣ إلى أن توفي سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبد المنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعد له ابن خلكان في القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب في أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه في جزئين وكتاب في تصحيح المد لورث في ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني^(٢) المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة في الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفي سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة في قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير في القراءات السبع وعليه عول الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان في قراءة ورش عن نافع، ونشر له في دمشق كتاب المحكم في نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد^(٣) بن شريح الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافي في القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الداني الإمام الشاطبي^(٤) الضرير القاسم بن فيره نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات» وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عول القراء في زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبي ما دونه

(٣) راجع النشر في القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر في الشاطبي التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢٠/٢ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٤٨/٥ ومعجم الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٠/٧ ونفع الطيب ٤٥/٢.

(١) راجع في مكى طبقات القراء ٣٠٩/٢ وبغية المتنس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباه الرواة ٣١٣/٣ وابن خلكان ٢٧٤/٥.

(٢) انظر في الداني طبقات القراء ٥٠٣/١ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢١/١٢ وبغية المتنس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٢٩٨/٣ وطبقات المفسرين للسيوطي ١٥٩ وإنباه الرواة ٣٤١/٢ والنفع ١٣٥/٢.

الداني في القراءات بقصيدته وعنى الناس بحفظها وتلقيها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس^(١). وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطي الذي مر ذكره بين النحاة، ويقول في مقدمة تفسيره إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجعوا له أن له كتابا في كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا في قراءة زيد بن علي إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسومه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئ: الداني ومكي في ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشاركة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم في تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما ألف فيه هناك كتاب بقي^(٢) بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذي أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبري أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وملتقى بعد بقي بمحمد^(٣) بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر في التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولكي المذكور أنفا تفسير ضخيم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان في سبعين جزءا، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقي التفسير الكبير لابن عطية^(٤) أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضي المرية المتوفى سنة ٥٤٢، وولي أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيها نابها عارفا بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز في التفسير من أحسن التأليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعا، وهو في مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول

بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطيفات المفسرين للسيوطي رقم ١٠٢ والوافي للصفدي ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.
(٤) راجع في ابن عطية الفتح في القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنهاي ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون في الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافي ١٠٣٠/٣

(٢) راجع في بقي ابن الفرزي ١٠٧/١ والحيمدي ١٦٧ ونفع الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبي ٢٢٩ ومعجم الأدياء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبي ٦٢٩.

(٣) انظر في ابن أبي زمنين الحيمدي ٥٣ وابن

ابن خلدون - التفاسير الماثورة كلها وتحري الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس^(١). وينسب لمحيى الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، وملتقى بعده بالقرطبي^(٢) محمد بن أحمد نزيل مصر الذي اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفي سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو في عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية في تفسيره^(٣). ويختتم نشاط الأندلسيين في تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبي حيان الذي مر بنا ذكره بين النحاة وهو في ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر في مقدمته مصادره في اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية موطنه وتفسير الزمخشري، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنها والمراجعة لهما في تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وبيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس في علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيه معاوية^(٤) بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء في روايته أو في التصنيف فيه وفي رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، وملتقى فيه يبقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله في الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له في الحديث مصنفه الكبير الذى رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف في الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدى لابن الأبار
ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١
وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة
للخشي (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب
لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.
(٢) انظر في القرطبي طبقات المفسرين للسيوطى
ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوافى للصفدى
١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.
(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.
(٤) راجع في معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣

فإنه روى أحاديثه في المصنف عن مائتي رجل وأربعة وثلاثين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»^(١) ويقول ابن حبان في المقتبس به انتشار الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد^(٢) بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - في نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس في الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»^(٣) وهما لم يدفعوا الأندلس إلى السعة في الحديث وروايته فحسب، بل دفعها أيضا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقي وابن وضاح تلميذها ثابت^(٤) بن عبدالعزيز السرقسطي المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق في طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب في غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم في زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين في القرن الرابع قاسم^(٥) بن أصبغ تلميذ بقي بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له في الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد^(٦) بن عبد الملك بن أئمن (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيضان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من كتب المصنفات. ويلقانا في آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وبنوه ابن بشكوال في كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأسماء الرواة: المعدلين منهم والمجرحين^(٧). ونلتقي في القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي^(٨) صاحب جذوة المقتبس التي نرجع إليها في الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوي في القرن السادس الهجري، ومنهم رزين^(٩) السرقسطي المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس: البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وقد

(١) نفع الطيب ١٦٨/٣.

(٢) انظر في ابن وضاح ابن الفرضي رقم ١١٣٤ والحميدي رقم ١٥٢ والضبي رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكي - نشر بيروت) ص ٢٦٤.

(٤) راجع في ثابت وقاسم ابنه مراجعتهما في هامش ص ٩٢ وأيضا النفع ١٧٠/٣ والحميدي رقم ٣٤٥.

٧٧١

(٥) انظر في ابن أصبغ النفع ١٦٩/٣ وابن

الفرضي رقم ١٠٦٨.

(٦) راجع في ابن أئمن النفع ١٦٩/٣ والحميدي

رقم ٩٨ وابن الفرضي رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع في الحميدي الصلة رقم ١١١٤ ومعجم

الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من

مصادر والوافي للصفدي ٣١٧/٤.

(٩) انظر في رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبي ٧٤١.

دوت شهرته في المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطي^(١) عبدالله بن علي المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب في أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعاني،

وجاء بعده ابن قُرُقُول^(٢): إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض في غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق^(٣) الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، وله أيضا كتاب في الجمع بين الصحاح الستة وكتاب في المعتل من الحديث وكتاب في غريب القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروي وثلاث نسخ من كتاب له في الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن القطان^(٤) علي بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلمه ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تأليف مختلفة في الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن^(٥) فرح الإشبيلي نزيل دمشق وبجامعها حدث إلى أن توفي سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضمن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة في رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطي المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ^(٦) يوسف بن عبدالعزيز الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرّف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب في الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفي مقدمتهم صعصعة^(٧) بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذي أفتى الناس هناك - أخذا برأى

(٤) راجع ابن القطان في التكملة رقم ١٩٢٠
(٥) انظر ابن فرح في طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ في الصلة رقم ١٣٩٥
(٧) انظر في صعصعة ابن الفرضي رقم ٦٠٥ والحميدى رقم ٥١٠.

(١) راجع في الرشاطي الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣
(٢) راجع في ابن قُرُقُول بقية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر في ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشي في المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

أستاذه - بغرس السجور في صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل في المساجد الجامعة بالأندلس^(١) بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك^(٢) بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون في كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فجّ، فكان طبيعياً أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوّية في العالم الإسلامي، وأيضاً فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعوا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضباً للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعه الخليفة المنصور ومبايعه النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجردّه وضربه بالسياط عقاباً له على فتواه^(٣). وهو ما جعل - في رأينا - عبدالرحمن الداخل وابنه هشاماً يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهي نصرة له ضد العباسيين وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحمل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازي بن قيس الذي مر بنا بين المؤيدين والقراء، يقول ابن القوطية: «في أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله»^(٤) ويقول الحميدى: كانت تدور الفتيا على الغازي بن قيس في عهد هشام إذ كان مشاوراً مع مصعب بن عمران^(٥). ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضاً إلى الأندلس شبطون^(٦): زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفي بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

(٣) راجع ترجمة مالك في ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد، ص ٣٥)

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع في شبطون ابن الفرضي رقم ٤٥٦

والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاء للخشنى ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

(١) انظر في هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت في الأندلس بقية لمذهب الأوزاعي في الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيها على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى^(١) بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذي علّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعَدُّ في الأندلس أفعه منه في نظرائه» وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم^(٢). وتألّف في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى^(٣) اللبثي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضي (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريهه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولّي قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحري بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير في الفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرّج في الفقه المالكي على يد عبد^(٤) الرحمن بن القاسم، وتخرّج مثله على يده سحنون

(٤) يُذكر كثيراً في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بآراء عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه حتى ليقول أبو الوليد المشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها المقرئ في النفح (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

(١) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والحامدي ص ٢٧٩ والضبي ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفح ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١٧/١.

(٣) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و ٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والحامدي رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

فقيه القيروان الذي حمل عنه مدونته^(١) وأذاعها بموطنه، فُنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملأته^(٢) على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك في كتب الفقه المالكي الأندلسي، ونمثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكاً في فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضاً في تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفي سنة ٢٠٤ وأصبع بن الفرّج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفي سنة ٢٢٥. ويذكر أيضاً فيها الإمام الليث المذكور آنفاً الذي قال فيه الشافعي: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثي عميد الفقهاء المالكيين في الأندلس المذكور آنفاً والذي كان لا يفتي إلا برأى مالك يترك رأيه في القنوت في الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه في الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث في إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث^(٣) التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعاً الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل في غنم مائة وعشر ولآخر في نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعهما فيكون عليهما ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منها شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعاً مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلاً وهو نظام معروف في مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومرّ بنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعي في غرس الشجر في المساجد مخالفين في ذلك رأى مالك. وخلف يحيى الليثي في رئاسة المدرسة المالكية بالأندلس عيد^(٤) الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

(٣) راجع في هذه المسائل التي خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهي ص ٥١.

(٤) انظر في عبد الملك بن حبيب ابن الفرضي رقم ٨١٤ والزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ والحميدى رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمع لابن خاقان ص ٣٦ وابن فرحون في الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابها عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص ٨٤.

الواضحة في الفقه المالكي الذي اشتهر في الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرّج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها في الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى^(٢) بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب في تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعاني الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له في رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى^(٣) بن عبد الله حفيد يحيى الليثي المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملئ على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة^(٤) جدّه يحيى الليثي. وفي ذلك ما يدل على أن كتابا في الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون في القيروان، كما كان يُروى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبي زمنين^(٥) المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب في اختصار مدونة سحنون وكتاب في الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى في زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكي الأندلسي الكبير ابن عبد^(٦) البر يوسف النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معاني الرأي والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» رتبته على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا. وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده في القرن الخامس أبو الوليد^(٧) الباجي

- (١) رجع ابن عتبة في ابن الفرضى رقم ١١٠٢ والحامدي رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.
 (٢) انظر في ابن مزين ابن الفرضى رقم ١٥٥٦ والحامدي رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع ١٦٨/٣.
 (٣) راجع في يحيى بن عبد الله ابن الفرضى رقم ١٥٩٥.
 (٤) يريد بعشرة جده كتباً عشرة له كان يروها عن شيوخه وخاصة شبطون.
 (٥) انظر مصادر ابن أبي زمنين بين المفسرين
 (٦) راجع في ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحامدي ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.
 (٧) انظر في أبي الوليد الباجي الصلة رقم ٢٤٩ وقلاند العقيان ص ١٨٨ والنباهي ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثاني ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتهى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب في الأصول باسم إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب في اختصار مدونة سحنون. ويلقانا في القرن السادس ابن^(١) رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية في زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما في المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت في المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو^(٢) بكر بن العربي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة في شرح كتب الصحاح في الحديث وفي أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله في الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعُلِّل ووجه فافاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا^(٣). ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية في المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية في ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة في الفقه المالكي في نحو ١٦٩٠ بيتا وهي منشورة في باريس منذ القرن الماضي، وكان الطلاب يدرسونها في جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكي في الأندلس، وكان من أهم الأسباب في ذلك أن تُجمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب^(٤) أبي حنيفة، إذ عدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين في الأندلس، ومثله المذهب

(١) انظر في ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤

والنباهي ص ٩٨ والديباج ٢٤٨/٢

(٢) راجع في ابن العربي الضبي رقم ١٧٩

والنباهي ص ١٠٥ والمغرب ٢٥٤/١ والصلة رقم

١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ

رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٨٦/٣ - ٩٥ وابن

فرحون ٢٥٢/٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) من ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفي محمد بن

عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين في

عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضي

رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

الحنبلية البغدادية، أما المذهب الشافعي فعني به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبع ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المزني ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم^(١) بن محمد بن سيار المتوفى سنة ٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للتعققة والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعني بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتابُ الإيضاح في الرد على ابن عتبة وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضي من فقهاء الشافعية يحيى بن عبدالعزيز المعروف بابن الخراز^(٢) المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبدالأعلى، ومما سمعه من ابن عبدالحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون^(٣) بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم^(٤) بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر في أسلم ابن الفرضي رقم ٢٧٨ والحميدي رقم ٣٢٢ والقضاة للخشني ص ١٥٥ وابن فرحون ٢٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

(١) راجع ابن سيار في الحميدي ٣١٠ وابن الفرضي ٢٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.
(٢) راجع في يحيى ابن الفرضي رقم ١٥٦٨.
(٣) انظر في هرون ابن الفرضي رقم ١٠٤٧ وابن

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيًا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعي في الأندلس. ووفد في عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعي فأكرمهم وتوسع لهم في العطاء والرواتب مثل عبيد^(١) الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إماما في الفقه على مذهب الشافعي كثير التصنيف فيه وفي القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين في القرن الرابع الأصلي^(٢) عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سماه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن الرابع ابن^(٣) أمية الحجاري وله كتاب في أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلا إنه كان بصيرا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بنى أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكراً مذهب الظاهرية في الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسي هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد في نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقي معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكي. وغضى إلى القرن الرابع الهجري، وتلقى بمنذر^(٤) بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصري واختلاف العلماء رواية عن ابن المنذر النيسابوري، كما يحمل مذهب داود الظاهري، وكان خطيباً مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما في عهد ابنه الحكم وكان شديدًا في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهي المذهب الظاهري وكان يحتج له ويحامي عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذي عليه العمل في بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًا على الانتصار للمذهب الظاهري، وله كتاب في أحكام القرآن غاية في بابه. ويلقانا في القرن

(٣) راجع في ابن أمية الحميدي ص ٣٨٠ وقد سماه ابن أمانة وانظر في كلمة ابن حزم عنه النفع ١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر في ترجمته بالفصل الخامس.

(١) راجع في عبيد الله بن عمر ابن الفرضي رقم ٧٦٩.

(٢) انظر في الأصلي ابن الفرضي رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١.

الخامس إمام مذهب الظاهرية في الأندلس على^(١) بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦، وكان من أسرة ناهية، إذ كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد إليها مراراً وأقامه المستظهر وزيراً سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكي، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعي ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهري على أبي الحيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمناً به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التي أخذ بها الأحناف والشافعية، وهي القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغي إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب في أصول المذهب المالكي القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهري ازدهر في عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة في عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبعياً لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهري يتقدمهم قاضي القضاة ابن مضاء^(٢) أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن^(٣) حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولي القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن^(٤) خطاب الإشبيلي على بن عبد الله قاضي إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكي بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهري، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهرياً ثم تحول إلى المذهب الشافعي.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين في الأندلس لأن لهم كتباً متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشني ولابن عبد البر كتاب مماثل وكذلك للنباهي، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية في الأندلس إلى الازدهار بدراساتهم المذهب للطلاب

(١) راجع في مصادر ابن حزم ترجمته في الفصل الخامس.
(٢) راجع في ابن حوط الله النباهي ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٣) راجع في ابن حوط الله النباهي ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٤) راجع في مصادر ابن مضاء في ص ٩٧.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغي أن أشير إلى أن النظام القضائي بالأندلس رافقه ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره في المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية^(١) من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد في القضايا المشكلة، وهي تشبه ما نعرف في قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها في القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف في قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محامياً يثبت ذلك في عقد بينه وبين المحامى^(٢) وكان للمحامى الحق في أن ينيب من يترافع عنه في القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضاً في عقد بينها^(٣). والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهي كتب بالغة الأهمية في بيان الأحوال الاجتماعية في الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات في المزارعات وغيرها من الاستتجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستتجار الخيل والسلاح للحرب واستتجار الثياب والحلى والكتب^(٤)، وكان لابد لإسلام نصرانى أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فარاً من شيء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق^(٥).

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعارة أدق لم تجد لها أنصاراً فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

المذهب ٢٣١/٢.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن العطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة في مقتبس ابن

حيان لعهد بنى أمية ويسميه المشاووين.

(٢) انظر في ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن

العطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد)

ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار في الديباج

القرطبي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة^(١) للإنسان، وكان يعاصره معتزلى مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان^(٢) في أفعاله، وتابعه في اتجاهه الاعتزالي ابن السمين^(٣) يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزلياً. وأول معتزلى أندلسى دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذى أُلْمِنَ به فى أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمر الناصر فى سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجها لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الإنسان حر فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراء الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - فى عهد الناصر وعادوا إلى الظهور فى عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر الذى أظهر التشدد فى كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد فى عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول^(٤) ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية فى عهد ابن أبى عامر وعادت إلى شىء من النشاط فى عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - فى حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل الرعيني. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالي أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيراً من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيا لقيام التأليف العلمى فى أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيا لقيام التفكير الفلسفى فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة فى التفكير الأوروبى أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدئين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام فى كتابه الحيوان مستشهداً بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حرياً بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ فى أوائل كتابه «فى الأدب الجاهلى»

الفرضى رقم ٥٧٨، والنسخ ٣/٣٧٥ وبالنسبة
ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحماة (تحقيق د. الطاهر مكى) ص
٧٢.

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن
فرحون ٥٥/٢ وبالنسبة ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧
وبالنسبة ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأُمِّ لصاعد ص ١٠١ وابن

وأضافه إلى ديكرت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالي أو الكلامي الثاني أشار إليه بير دانييل هويه إذ قال إن ديكرت أخذ عن أهل الفكر والمجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفي: «أنا أفكر فأنا موجود»^(١) مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدأ أن الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبها ديكرت اجتلاباً مما ترجم في اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرئ في^(٢) النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلماً متحققاً برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين في مديح إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج في الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثاً خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام في الإسلام، وفيه ينقض نقضاً دقيقاً مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءة والربانية والعيسوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعاً من صنع البشر. ويرى أن الكلمات في التوراة وفي الإنجيل بعهديه - القديم والجديد - حُرِّفت عن مواضعها على أيدي أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهي من دراساته المتعمقة في التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل - ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحي الإلهي، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بني إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعدّه - كما يعدّه المسلمون عامة - نبياً مرسلًا.

للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ١٠٠/١.
(٢) النفح ٣/٣٥٢.

(١) بالنسبة ص ٥٣٤. وانظر في مبدأ ديكرت
الفلسفي ترجمته في قصة الفلسفة الحديثة

التاريخ

نشطت الأندلس - منذ القرن الثالث الهجري - في الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أو بالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أو بالسيرة النبوية العطرة أو بكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد في هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح في كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثي الذي مر بنا ذكره بين فقهاءها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معها وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وافتتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه في عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا في أوكسفورد^(١). وملتقى بعده بعريب^(٢) المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبرى وهو مثله على السنوات بادئاً بسنة ٢٩٦ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له في الفصل الأخير رسالة تدخل في التاريخ العام سبهاها نقطت العروس في تواريخ الخلفاء ونوادير أخبارهم نشرتها في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتاب كتاب إعلام الإعلام في تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفي مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد^(٣) بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. وملتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف في أيامه، كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض في الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

(١) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط في

الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى

ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.

(٢) انظر مصادر ترجمة الرازى بين الجغرافيين

ص ٨٩.

(٣) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط في

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس

ص ٢٢١، ١٨٩.

(٢) انظر في ترجمة عريب القسم الأول من الجزء

(٣٧٥-٣٠٠هـ). وملتقى في عصر أمراء الطوائف بآبن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة ٤٦٩ وموسوعتيه التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسلم بهما فى الفصل الأخير، وليحيى^(١) بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب^(٢) الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد^(٣) المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى^(٤) يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللوحة البدرية فى الدولة النصرىة، وهو تاريخ لبنى الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكرر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولاين حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سببى، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب، ولللكلاعى^(٥) سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولابن^(٦) سيد الناس الإشبلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فتون المغازى والشهائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم مجلدتين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

واختصار القدح المعل (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإيبارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطى ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لحقيقه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٧٣/٢.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد في تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي^(١) عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد^(٢) المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى^(٣) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهي به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال^(٤) المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتبس للضبي أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى في جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له في الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيرة في تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر في الأندلس والمغرب وله أيضاً معجم الصدق وشيوخه وأصحابه، وللملاحى^(٥) محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب في علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير^(٦) أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيراً كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة وعلائها وأدبائها لابن الخطيب وهو في أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى^(٧) المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى^(٨) المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جليل المتوفى سنة ٣٧٧ ومرة ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المار ذكره، وألفت في أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

(٦) راجع في ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافي ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.
(٧) انظر في الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبي رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٠٠.
(٨) راجع في النباهى الجزء الثانى من أزهار الرياض ونيل الانتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(١) انظر في ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/١ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع في صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال في التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدق لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر في الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(الأندلس) لابن دحية^(١) المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفي مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح^(٢) بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهي في ثمانية مجلدات وسنلم بها في الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيرة المذكورة آنفاً وكتاب تحفة القادم في تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق في العددين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن^(٣) سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأنطلسية في جزءين بدار المعارف، وله الغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضاً، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأنطلس في النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأنطلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن^(٤) الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأنطلسيين في كتابة التاريخ ينبغي أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأنطلس لابن حزم المدونة في نفح الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة^(٥) ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

دار المعارف).
(٤) انظر في ابن الأحمر درة المجال لابن القاضي (طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل الابتهاج ٩٩.
(٥) راجع في ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضئى ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. محمد بن شريفة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٣٩/٢.

(١) انظر في ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.
(٢) انظر في الفتح بن خاقان معجم الصدق: ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٢٩/٥ وابن خلكان ٢٣/٤.
(٣) راجع في ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١ والفوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر القسم الأنطلسي من كتابه المغرب (طبع